# ( ١٧ )
# قواعد العشق عند وعد

لم يتحمَّل الدكتور مالك موت ابنه وانحراف ابنته ، وهو مَن كان حريصا على أنْ يعلمهما في مدارس إسلامية ملتزمة بمبادىء الدين والأخلاق الفاضلة الحميدة ، ويبعدهما عما قد ينثر بعض الغبار على معدنهما الثمين الأصيل ، وقطعا " لا شيء في الدنيا أغلى على الأب والأم مِن أولادهما " .. هذه أول قاعدة مِن قواعد العشق التي تسمو على قواعد جلال الدين الرومي الأربعين ، فكلُّ أنواع العشق وتفاصيله ومظاهره ما هي إلا هوامش على جانبي هذه القاعدة ، فالأولاد أثمن وأغلى ما يملكه البشر.

أصابت تلك الأخبار القاتلة عقل وقلب الرجل المسكين فانهار توازنه العقلي والنفسي .. ترك وعد وأسرع هائما مِن أمام بيتهم الضائع إلى الشوارع المحيطة ، وراحت تلاحقه وتتبعه حتى استطاعت بمعاونة أيوب البواب أنْ تُمسِك به .. أدخلته السيارة وانطلقتْ به إلى شقتهما بالحي السادس .

ظلَّ بهذي طوال الليل وعيناه عالقتان بسقف الحجرة .. يحدث المرآة والدولاب والسرير.. يحكي حكايته مع حنان منذ اليوم الأول الذى رآها فيه بطريقة أثَّرت كثيرا في قلب زوجته وعد ، تلك التي ظلت ساهرة بجانبه ، تسمع له وهو يتحدث إلى كل شيء حوله .. يحكي لهذا الليل الساكن حكاية بلال وحبيبة .

وفي الصباح أخذته وعد إلى مستشفى أبي العزايم للأمراض النفسية والعقلية .. تمَّ احتجازه هناك مِن أجل العلاج ، فحالته ظاهرة للجميع .. لقد عاد الدكتور مالك للجنون .

وعادت وعد مِن المستشفى بدونه .. تركته حزينة غاضبة .. اتصلت بيعقوب الأصفر:

- يعقوب .. قابلني حالا هناك
- أمرك يا معلمتي

قالت له مذ رأته عند الحديقة الدولية :

- هناك امرأة أريد منكَ أنْ تأتيني بكل أخبارها
- فقط أعطني اسمها وما لديكِ مِن معلومات عنها واتركي الباقي عليَّ
- المعلومات قليلة يا يعقوب .. لكني أثق بقدراتك
- اطمئني .. فأنا تلميذك

غاب يعقوب أسبوعا كاملا ثم عاد ليخبر وعد بما جمعه مِن أخبار عن حنان .. قال لها هاتفيا :

- سأنتظركِ هناك

ذهبتْ حيث سور الحديقة الدولية .. ركب بجانبها .. قالت :

- قُلْ ما عندك
- باعت البيت وكل الأملاك التي يملكها مالك بموجب إعلام الوراثة وتوكيلات مِن أخوته وتقريرات طبية تثبت أنَّ مالك مجنون
- أنا تقريبا أعرف ذلك .. ما الجديد؟
- اشترت فيلا في التجمع الخامس وفرشتها لتستقر بها مع زوجها الجديد
- وماذا بعد؟
- هي الآن في شرم الشيخ لمدة أسبوع
- هل هناك أحد في الفيلا الآن؟

- لا أحد غير الحارس وزوجته وأولاده
- إذن اسمعني جيدا يا يعقوب
- دائما أسمعكِ جيدا .. تفضلي
- مِن أجل أولاد الحارس .. سأخرجهم جميعا مِن الفيلا لساعتين فقط .. هل تسمعني؟
- أسمعكِ يا معلمتي
- وسيكون أمامك ساعة .. ساعة فقط .. هل تفهمني؟
- أفهمكِ يا معلمتي
- ستدخل الفيلا وتسرق كل ما تستطيع حمله .. هل تكفيكَ ساعة؟
- وأقل مِن الساعة يكفيني
- كل ما ستسرقه هو غنيمة لكَ وحدك
- وأنتِ يا معلمتي؟ .. ماذا ستستفيدين مِن ذلك؟
- يكفيني شيء واحد يا يعقوب
- ما هو؟
- ماس كهربائي

فضحك يعقوب طويلا ثم قال مزهوا بنفسه :

- تلك لعبتي .. وشقة سالم وصباح ليستْ عنا ببعيد
- أنا أثق بكَ .. لكن زِدْ بعضا مِن المواد القابلة للاشتعال
- فلتكنْ جهنم يا معلمتي
- أجل .. فلتكن جهنم لكل مَن يمسُّ شعرة مِن حبيبي

فضحك يعقوب ثم قال :

- إذن هو الانتقام .. الانتقام لمالك
- نعم إنه الانتقام لي ولمالك .. والغنيمة لك

فعاد يعقوب ، وضحك قائلا وهو يرفع يديه لوضع الدعاء :

- اللهم أكثرمِن أمثالكِ يا معلمتي
- ومنكَ يا يعقوب
- آمين

ثم ثبَّتتْ وعد عينيها على الطريق بتحدٍّ وغضب قائلة :

- يعقوب .. أريد أنْ أمتع عيني برؤية نارجهنم تأكل الفيلا
- هذا أمرٌبسيط يا معلمتي
- سأنتظر اتصالك لتخبرني بكلمتين فقط
- ما هما؟
- صارت جهنم
- أمرك يا معلمتي
- يعقوب .. ليأكلْ الحريق الفيلا كاملة
- سيحدث

ثم رمقته بنظرة جانبية سريعة وقالت :

- وإنْ لم تحترق الفيلا كلها ستقول كلمة واحدة
- ما هي؟
- فشلت
- أعوذ بالله .. ربنا يبعد عنا الفشل

- يعقوب
- نعم
- التنفيذ غدا مِن السابعة إلى الثامنة مساء
- أمرك .. ولكن ما الداعي لاستبعاد الحارس وزوجته وأولاده؟ .. فليحترقوا مع الفيلا
- وما ذنبهم يا يعقوب؟
- معلمتي ماذا حدث لكِ؟ .. مِن أين جاءتكِ الشفقة؟
- يعقوب .. نفذ ما أمرتك به وفقط

وتمَّ التنفيذ ، واحترقتْ فيلا حنان عن آخرها ، وذهبتْ وعد فمتَّعتْ عينيها لوقتٍ طويل .. كانت تقف بين الواقفين والسعادة تشعُّ مِن عينيها ، بينما وقع الخبر على حنان وقع السهام التي اخترقتْ كل جسدها ، فلم تُبقِ موضعا دون إصابة ، ثم راحت بعد أنْ استفاقت مِن حسرتها ولوعتها تتابع تحريات الشرطة ، وتستقصي عن كل شيء لعلها تصل لشيء .

وعاشت وعد وحدها في شقة الحي السادس ، وكان مالك لا يفارق خيالها لحظة .. راحتْ تستعيد كل مواقفها معه .. ظلتْ بها أياما تعاني آلام الفراق وتكابد الشوق له .. تذكرتْ كل أيامهما سويا .. هنا كان يمازحها ، وهنا كان يبكي على صدرها ، وهنا كان يقبلها ، وعلى هذا المقعد جلس فجلستْ على رجليه وطوقت عنقه وصبَّتْ عليه قبلاتها ، وهنا جلس يوم فاجأها بهديته لها عندما خرج دون علمها ليحضرها ، وهنا جلس خلفها يمشط لها شعرها الناعم ، وهنا أخبرها أنه لم يحب في حياته غيرها .. هنا في هذه الشقة كانت حياتها الملائكية ، وخارج هنا لم تكن إلا شيطانة .

وذهبتْ إلى الرحاب لتقيم بعضا مِن الأيام مع ابنتها هايدي وياسين ، إذ لم تتحمل البقاء كثيرا وحدها بالشقة دون زوجها وحبيبها مالك ، وبدا لياسين وهايدي تغير مزاجها فسألاها :

- ما لكِ؟

- أنا بخير

قالت هايدي :

- لماذا لم يأتِ معك الدكتور مالك؟

أجابت كاذبة في أسى :

- هو مشغول بعيادته الجديدة

فقال ياسين :

- ربنا يوفقه

وقالت هايدي تحدثها في موضوع آخر:

- ماما .. أنا وياسين نريد أنْ نطلب منك شيئا

- اطلبا

- نريدك أنْ تتركي عملك

- هل تقصدين عملي في التسول؟

أجاب ياسين عن هايدي :

- أجل .. ماذا لو تصادف ورآك عمو معتصم أو زوجته المهندسة أحلام تقفين في الإشارة؟

ابتسمتْ وعد ابتسامة حزينة وقالت :

- هل سيقرآن على جبهتي أني أمكما؟ .. وقد مرَّت سنوات منذ كنت أخدم ببيتهما وشكلي تغير

قالت هايدي مسرعة :

- نحن نعرف ذلك .. لكن اقترب وقت أنْ يتقابلا معكِ .. ماذا لو رآكِ أحد منهم بعد ذلك تتسولين؟

قالت وعد بصوتٍ منكسر :

- هل تعرفان أنَّ عمكما الدكتور مالك طلب مِني ذلك كثيرا؟

قالت هايدي بابتسامة جميلة :

- ألن تسمعي كلامه؟

فابتسمتْ وعد ابتسامة عاشقة وقالت :

- وكيف لا أسمع كلام مَن أحبهم؟! .. اطمئنا .. لن أعمل في التسول بعد اليوم

ووقف الاثنان وأسرعا ناحيتها ، وقبلا رأسها وهي تربتُ على يديهما قائلة في حزن:

- الحب بلا تضحية ليس حبا

- ونحن أيضا والله نحبك كثيرا يا ماما

وبالطبع لم تترك وعد عمل التسول إلا مِن أجل زوجها وحبيبها مالك ، فكثيرا كان يطالبها بذلك ، فأرادت أنْ تحقق طلبا له في غيابه عنها كما لو كان معها ، وفعلا تلك قاعدة ثانية مِن قواعدِ العشق عند وعد الغجرية ، وهي "الحبُّ بلا تضحيةٍ ليس حبا"

وذهبتْ وعد لزيارة مالك في المستشفى .. وجدته حقا شخصا مجنونا ، وجنونه في ازدياد ، حتى إنه لم يشعر بوجودها .. يتحدث إلى نفسه هاذيا مشغولا عن كل مَن حوله ، فجلستْ بجواره تراقبه ، ثم أسرعتْ إلى إدارة المستشفى لتخرجه معها إلى شقتهما بالحي السادس ، فأخبروها أنَّ ذلك خطرٌ عليه وعليها ، لكنها أصرتْ إصرارا كبيرا على إخراجه .

ركب بجانبها ثم غلَّقتْ الأبواب ، وراحت تتحدث إليه دامعة .. ذكرتْ له بعضا مِن مواقفهما معا حتى تضاحكه ، لكنه كان قد سلك رغما عنه طريق الجنون الفعلي ، فلم ينتبه لأي شيء ، فراحتْ تبكي بحرقة ، وهي التي لم تبكِ على شيءٍ طوال عمرها السابق أبدا ، ولم تهتم لشخصٍ على مدى حياتها السابقة أبدا ، ولم ترتكب جريمة دون ثمنٍ مادي تلمسه يداها ولو على أبعد مدى ، لكنها الآن بكتْ ذلك البكاء بسبب العشق ، وهنا قاعدة عشقية ثالثة ، هي "مَن لا يُبكِه العشقُ يوما فليس بعاشق"

وراحت بعد ذلك تفكر فيما معها مِن مال ، فلم تجد ما يلزمها ويلزم هايدي وياسين ، وأكثر مِن ذلك لم تجد ما يلزم للإنفاق بسخاءٍ على حبيبها الدكتور مالك ، فماذا تفعل وقد تركتْ التسول؟ ..لم تفكر طويلا ، إنما اتصلتْ بيعقوب الأصفر كي يقابلها في المكان المعهود .

ركب يعقوب بجانبها .. قالت له :

- يا يعقوب .. أريد مالا
- كم تريدين يا معلمتي؟
- كثيرا
- يمكنني إقراضك الآن مائة ألف .. هل تكفي؟

- وعد المحروس لا تقترض مِن أحد يا يعقوب
- مالي هو مالك يا معلمتي .. لقد غنمتُ أضعاف ذلك مِن فيلا حنان
- كل ما غنمته حلال عليك
- يمكنني أنْ أجد لكِ عملا تربحين منه الكثيريا معلمتي
- ما هذا العمل؟
- العمل الذي أعمل به حين أختفي
- قُلْ يا يعقوب ما لديك
- هذا سر كبيروخطيريا معلمتي .. لكنني سأخبرك به .. أنا أثق بكِ جدا
- أخبرني
- عندما أتغيب عنكِ أكون هناك ضمن عصابة لخطف الأطفال وبيع الأعضاء
- يا لكَ مِن شيطان!
- تلميذك يا معلمتي
- هل وصل شرُّك إلى هذا الحد؟
- ولم لا؟ .. إننا نربح مِن ذلك مالا كثيرا
- عرفتُ الآن لماذا تختفي خلف قناع الجنون أيها الشيطان
- تلميذك يا معلمتي
- يعقوب
- نعم
- أبعدني عن موضوع خطف الأطفال
- هل معقولٌ ما أسمعه منك؟

- الحبُّ رقَّق قلبي يا يعقوب .. أشعر أنَّ حبي لمالك يغسلني في كل يوم ليطهِّر بعضا مِني
- كم أحسد مالك عليكِ! .. يا لحظه السعيد!
- ابحث لنا يا يعقوب عن شيء آخر تملكه تلك الأفعى حنان
- أمرك
- هذه المرة لن نحرق .. إنما سنسرق
- كما تريدين يا معلمتي
- سنتقاسم الغنائم يا يعقوب .. فأنتَ فعلا قد ظهر إخلاصك لي
- والله ما أجمل العمل معكِ يا معلمتي ! .. لكنْ أتمنى أنْ يدوم الإخلاص بيننا

قالها الشيطان يعقوب الأصفر ثناءً عليها وتملقا إليها ، وهو يقينا يستفيد منها الكثير ، ولهذا فقد أعقبها يقول لنفسه في نفسه : (لن أسمح لكِ بالتوبة أبدا يا وعد .. سيكون يوم توبتك أو خيانتك لي هو يوم موتك على يدي .. لستِ أنتِ وحدكِ .. بل كل مَن تحبين وأولهم مالك)

وحقا كما قالت وعد "الحبُّ يُرقِّق القلب" ، وتلك أيضا قاعدة رابعة مِن قواعد العشق ، حيث أحسَّتْ وعد بهذا الإحساس بسبب عشقها لمالك ، ولو لم تعشق لخطفتْ أطفالا وقتلتهم مثل يعقوب دون أنْ ترفَّ لها عين ، ودون أنْ يساورها أقلُّ إحساسٍ بأقل ألم أو ندم ، لكنه العشقُ الذي يفعل المستحيل مع الأشخاص الأسوياء ، أما امرأة مثل وعد الغجرية فيكفينا منها أنْ رفضتْ خطفَ طفل أو قتله لنقول : إنْ العشق حقَّق معها المستحيل .

اتصل يعقوب بعد أسبوع ، فذهبتْ له وركب بجانبها .. قال :

- معلمتي

- نعم يا يعقوب
- حنان باعت فيلتها الكبيرة على حالتها المحترقة
- بكم باعتها؟
- بأقل مِن نصف ثمنها بكثير.. بسبعة ملايين
- وماذا فعلتْ بأموالها؟
- لا أعرف .. لكن مؤكد أنها وضعتها في بنك
- وأين ستقيم؟
- ستشتري شقة كبيرة في التجمع جاهزة بفرشها لتقيم فيها
- بكم الشقة التي ستشتريها؟
- ثلاثة ملايين
- كيف عرفتَ؟
- راقبتُ كل تحركاتها .. وسألتُ وعرفتُ كل شيء مِن بعيد
- وهذه الملايين الثلاثة .. هل ستدفعها نقدا أم تحولها؟
- هذه لا أعرفها
- اعرف ذلك يا يعقوب
- أمرك يا معلمتي

وذهب يعقوب لثلاثة أيام ثم عاد فقال :

- معلمتي .. عرفتُ مِن شخص بالمكتب العقاري أنَّ البائع طلب استلام الملايين نقدا
- حسنا حسنا .. فهذا ما نريده .. ومتى الدفع يا يعقوب؟

- بعد غد صباحا .. ستذهب وتسحب أموالها مِن بنك في شارع التسعين ثم تذهب لتدفعها
- جميل جميل
- لكن هناك مشكلة يا معلمتي
- ما هي؟
- زوجها لا يفارقها
- وما المشكلة في ذلك؟
- إنه رجل ضخم
- وهل هناك أضخم منكَ يا يعقوب؟ .. إنك تملأ سيارتي وحدك
- هو أيضا يملأ سيارة حنان
- لا عليكَ .. اترك الأمر لي .. قوة العقل تغلب قوة الجسد
- معكِ حق
- فقط أخبرني عن مكان البنك ومكان الشقة والمسافة بينهما
- سأخبركِ بكل شيء

وفي تمام الساعة الثامنة صباحا كانت هناك سيارة هيونداي النترا تقف أمام البنك المُراقَب ، وبداخلها رجلٌ يلبس جلبابا أبيض بلحية طويلة مهذبة ، وعلى رأسه طاقية بيضاء وبجواره امرأة منتقبة ، ومعهما طفلة جميلة في الخامسة مِن عمرها .

جاءت حنان بعد التاسعة بقليل تقود سيارة نيسان قشقاي وبصحبتها زوجها الضخم .. وقفتْ السيارة جانبا ، ثم خرجا منها ببطء إلى داخل البنك ، وكان بيد الرجل حقيبة يد كبيرة مطوية يبدو أنها فارغة ، وما هي إلا نصف ساعة بالداخل ،

ثم ظهرا خارجين يحملان نفسَ الحقيبة الكبيرة بعد أنْ انتفختْ .. سارا مسرعيْن مِن مخرج البنك حتى السيارة يتلفتان حولهما ، ولما دخلا سيارتهما القشقاي أدارتها حنان وبجوارها زوجها سالكيْن طريقهما إلى حيث يدفعان الملايين الثلاثة .

وأدارت المرأة المنتقبة سيارتها الهيونداي تتبعهما مِن بعيد وهي حريصة ألا تفقد أثرهما .. وصلا إلى شارع شبه خالٍ مِن الناس قريبا مِن الشقة المقصودة .. زادت المرأة المنتقبة مِن سرعتها .. صارت بموازاتهما .. تأكد الرجل الملتحي أنه بمكانٍ خالٍ مِن الكاميرات ، فأصدر الأمر للطفلة بالتحرك ، فأخرجتْ الطفلة الصغيرة يدها مِن السيارة تجاه نافذة القشقاي المغلقة وبيدها وردةٌ جميلة .. انتبه الرجل الضخم للطفلة المبتسمة .. ابتسم لها ، فأشارت له الطفلة بأنها تريد أنْ تعطيه الوردة .. فتح نافذته ليلتقط منها الوردة ، فأسرع الرجل الملتحي بإلقاء سلة مفتوحة بها ثلاثة ثعابين كبيرة داخل السيارة القشقاي .. رأتها حنان فصرختْ واضطربتْ وزادت مِن سرعتها ، ولم تنتبه لقيادتها ، فارتطمتْ سيارتها بالرصيف وتوقفتْ .

نزلتْ المرأة المنتقبة سريعا ومعها الرجل الملتحي ، وفي خفة ومهارة كانا قد رشَّا على وجه حنان والرجل الضخم سائلا أفقدهما الوعي .. حمل الرجل الملتحي الحقيبة ، وكانت المرأة المنتقبة قد سبقته إلى السيارة الهيونداي .. قادتها سريعا بعيدا عن هذا المكان بثلاثة ملايين مِن الجنيهات .

وعندما صارا خارج التجمع بطريقٍ منعزلٍ تماما وسط رمال مِن الناحيتين يربط بين الطريق الدائرى والمقطم أوقفتْ المرأة المنتقبة السيارة جانبا ، ونزل الرجل الملتحي سريعا ، فنزع أرقام السيارة المزيفة ووضع مكانها أرقاما أخرى ، ثم نزع عن نفسه ملابسه ولبس غيرها ، ونزعتْ المنتقبة نقابها وخمارها وعباءتها ..

دفن الرجل كلَّ ما نزعاه بالرمال ، ثم رجع إلى السيارة عائدا بظهره يزيل آثار قدميه ، وقادت المرأة وهي تقول منتشية بنجاح المهمة :

- هل لكَ خيال واسع يا يعقوب؟
- أنا موهوب بكل الأشياء الجميلة
- إذن تَخيَّل ما يحدث لحنان الآن وصفه لي
- ولِمَ ذلك يا معلمتي؟
- أريد أنْ أشعر بمزيد مِن السعادة
- يكفي حسرتها عندما تستفيق
- ألن تلدغها الثعابين وتموت؟
- للأسف الثعابين منزوعة السم
- هذا أفضل .. أريدها أنْ تعيش لتعاني بدلا مِن أنْ تموت فتستريح
- فعلا الموت راحة
- والجنون يا يعقوب؟ .. ما رأيك فيه؟ .. هل هو معاناة أم راحة؟
- الجنون أيضا راحة
- أرجو ذلك .. فحبيبي مالك لا أريده أنْ يعاني
- لن يعاني أبدا طالما أنتِ معه
- بمثل ما يشعر مالك أنا أشعر دائما يا يعقوب
- الله الله ! .. لا أعرف إلى متى ستظلُّ محظوظا هكذا يا صديقي
- يعقوب
- نعم

- نحن الغجر لسنا شياطين كما يظن الناس .. انظر إلى حنان .. ليست غجرية وفعلتْ ما فعلتْ
- معكِ حق
- وهذا أنتَ لستَ غجريا .. لكنكَ شيطان يا يعقوب
- الدنيا فيها هذا وذاك يا معلمتي .. آدم صنيع يد الله أنجب الخير والشر هابيل وقابيل
- يعقوب .. ماذا ستفعل بنصيبكَ مِن هذه العملية؟
- سأخبئهم في البنك
- كم جمعتَ مِن الأموال؟
- أموالا بلا عدد
- ألن تتوقف عن جمع المال؟
- ماذا أفعل بنفسي؟ .. حب المال مرض مزمن
- توقف يا يعقوب لتستمتع بما جمعتَ
- صرتُ أرى أنَّ متعة جمع المال أروع مِن متعة إنفاقه يا معلمتي
- يعقوب
- هل لك زوجة وأولاد؟
- نعم
- هل تحب زوجتك؟
- نعم أحبها .. لكني أحب المال أكثر
- وأولادك؟
- إلا الأولاد .. كل ما أفعله أفعله لهم

- هل تحبهم كثيرا؟
- فوق ما تتخيلين
- وهل تعرف أنَّ كل الآباء يحبون أولادهم مثلك؟
- أعرف
- وهل تعرف أنَّ مالك عاد إلى الجنون قهرا على أولاده؟
- نعم أعرف
- هل لي أنْ أطلب منك طلبا بعيدا عن العمل؟
- أي طلب منكِ هو أمر لي يا معلمتي
- لا تخطف أولاد الناس بعد ذلك يا يعقوب

وسكت يعقوب قليلا ثم قال :

- أمرك

وكانت وعد قد أوقفتْ سيارتها لينزل يعقوب ومعه الطفلة ، فنظرتْ له والدموع في عينيها قائلة :

- ولا تتاجر بأعضاء الأطفال يا يعقوب
- أمرك يا معلمتي .. ولكن .....

فقالت وعد في أسى وحزنٍ شديديْن :

- لا تقلق سأعوضك عن كل ذلك

ولحظ يعقوب الدموع في عينيها فسألها :

- لِمَ كل ذلك؟
- مِن أجل مالك